صرخةُ طالب(*)

الحصار: الحصار الجوّي، الحصار البرّي، الغارات الجوّيّة، حرب العصابات... كلّها مفردات تردَّدَتْ على مسامعنا خلال السنوات الأخيرة حتّى كادت تصير خصوصيّة من خصوصيّاتنا. ترى، لماذا في هذا الوقت بالذات أكثر من أيّ وقت مضى؟ كلّ هذه الضوضاء من أجل تبرير وضع الخطّة السياسيّة الجديدة للعالم، التي يُعَدّ فيها الطرفُ العربي ضيفَ الشّرف أو كبش الفداء إلى جانب روسيا الفيدراليّة ودول أوروبا الشرقيّة.

إنَّ مسألة التبعيّة الاقتصاديّة التي أضحى العالم يتحدَّث عنها منذ أوائل هذا القرن صارت شرطاً من شروط البقاء على السّاحة، أو شرطاً من شروط الرّخاء الحياتي. ليس هذا فحسب، بل صارت تعدّ عاملاً من عوامل البناء السياسي والفكري في آن.

وهنا، تكمن باعتقادي المشكلة الرئيسيّة لدول العالم الثالث، وأذكر على سبيل الخصوص: الدولَ العربيّة ـ من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار. إنَّ العرب يجلسون دائماً على الهامش حين يتعلّق الأمر بشأن من شؤونهم الاقتصاديّة أو السياسيّة الهامّة التي لها صلة من قريب أو بعيد بالغرب. فعلى الرّغم من توفّر بعض الدول العربيّة على موارد هامّة وكنوز طائلة تجعل منها سيِّدة مواقفها لا مسُودة، نراها ترضخ لكلّ الضغوطات الأجنبيّة ولا تتحرَّك بدون إشارة من المركز. بل قد صارت الحارس الأمين له في المنطقة وأصبح كلّ خارج من مسار التبعيّة خارجاً عن القانون الدولي، وعليه تجب محاكمته طبقاً للأعراف الدوليّة: إمّا بمحاكمته (وحصاره) أو تلقينه درساً من دروس المصارعة (الغارات الجوّيّة).

لقد بات الأمر سيِّئاً للغاية، وناقوس الخطر الذي يهدِّد وجودنا بالفناء قد دقّ منذ زمن بعيد. لكنّنا أدرنا ظهورنا إليه. وهاهوذا يصرخ مرّة أخرى إلى متى.. وإلى أين..؟!

إنّ ما يسيطر على الثقافة، عربيّة كانت أم غربيّة ثقافتان لا أكثر: الفكر المسيحي وصاحبه العقل الصهيوني اللذان يسيران جنباً إلى جنب لإعادة فتح العالم من جديد. أمّا الاشتراكيّة التي كانت يوماً ربّان النصف الثّاني من الكرة الأرضيّة وصقراً من صقور السّاحة الحمراء، فقد أضحت في أيّامنا عجوزاً في الساعات الأخيرة من احتضارها، لا تطلب الحياة فتريح ولا ترضى بالموت فتستريح (عكس المقولة الشائعة والخاطئة في آن، وهي المقولة التي تقول بزوال الاشتراكيّة بزوال الاتحاد السوفياتي).

□ ولكن الأمر الذي يخصّنا من هذا كلّه، هو أيّة هويّة يحملها الإنسان العربي في أواخر هذا القرن؟

إنَّ الإجابة على هذا السؤال تبدو في غاية السهولة والتعقيد في وقت واحد. فالإنسان العادي في مجتمعنا يعيش فراغاً روحيّاً قاتلاً استشرى في كل هياكله من القاعدة إلى القمّة. وهو ما سهَّل الطريق لكلّ المخطّطات الإمبرياليّة بأن تكمل غزوها الفكري والحياتي وتطمس كلّ المعالم العربيّة في الإنسان العربي على الأرض العربيّة.

وما نحياه الآن من تمزّق وتشنُّج في السويّة خير دليل على ذلك.

صفوة القول إنَّ الإنسان العربي صار جسداً بلا روح، وآلة صمّاء تحرّكها القوى الخفيّة كيف شاءت، وذلك ليتلاءم مع منهجيّة تقتضي تحنيط الأخضر واليابس، وتغليف حملتها الادّعائيّة بحجاب الديموقراطيّة. فكأنَّ الاستيلاء على حقوقه وحرّياته مرهون باستلاب هويّته وإنسانيّته.

ولذا، تمَّ إدخال الإنسان العربي إلى المشرحة سحقاً بعد التأكُّد تماماً من موته. بعد ذلك تأتي عمليّة غسيل المخّ التي تفتح دماغه للتيّارات والإرهاصات الغربيّة، الغريبة عن وعيه وتركيبه النفسي، رغم أنّه صار إنساناً بلا هويّة.

□ ولكن، في خضمّ هذا كلّه، أين مثقّفونا؟ ألم تبرأ الانكسارات والجروح بعد؟ ألم يتعوَّدوا بعد على النكبات؟ أهذا التّاريخ المليء بالهزائم لم يعلّمهم أن يتجلّدوا ولو لهزيمة أخرى قد تأتي أو لا تأتي، قريباً أو بعيداً! أما زالوا شغوفين بالحكمة الباردة «إذا كان الكلام من فضّة فالسكوت من ذهب» تاركين السّاحة للدجّالين والمرتزقة وشاهدي الزُّور؟ ألا يعلمون أنَّ سكوتهم الذهبي هذا يُعدّ خيانة للتاريخ؟

أيّها المثقّف العربي، قمْ وانهضْ من جرحك. واكتب مأساتك عاريةً كالبحر على الورق، وإن لم تجد ورقاً فاكتبها على الجدران، على الأرصفة والطرق... فالمهمّ أن تكتب، وإنْ لم تجد حبراً فاكتب بدمك.

كمال التوزي

(طالب بكلّيّة الحقوق، بالدار البيضاء)

(*) إلى مجلّة الآداب وإلى مثقّفي الوطن العربي أوجّه ندائي وصراخي المبحوح. إلى الذين يحملون مشعلَ النُّور والحقّ والحرّيّة والعدالة الإنسانيّة أهدي هذا المقال.